معارك ابراهيم باشا

احتيار ابراهيم باشا لقيادة الحملة على نجد

قرر محمد علي اختيار شخصية قوية يعقد لها لواء حملته الجديدة الى نجد، هذه الحملة التي يريد منها أن تقهر عبد الله بن سعود وتدمر عاصمته (الدرعية) ..

ويروي لنا بلغرف قصة طريفة ،يزعم ان العربان في خيامهم كانوا يتداولونها، عن الاسلوب الذي اتبعه محمد علي في اختيار القائد المنشود ، فيقول :

قرر محمد علي استئناف الحرب ضد النجديين بقوة وزخم ، وأراد أن يتخذ للحملة الجديدة قائداً غير طوسون المريض ، فدعا الى قصره ، في القلعة ، كل القواد والرؤساء الذين يمكن التفكير فيهم للقيام بهذه القيادة، وفي الساعة المحددة للاجتماع ، حضر ثمانون أميراً وقائداً ، وكان بينهم ابنه (ابراهيم) ، وقد دخل المدعوون الحجرة التي يجلس فيها محمد علي ، فوجدوا بين يديه سجادة مبسوطة، وفي وسطها تفاحة على طبق .. فتعجبوا من ذلك !

وهنا قال لهم محمد علي :

– سأختار قائداً للحملة ضد الوهابيين الرجل الذي يستطيع الإمساك بهذه التفاحة ، دون أن يطأ بقدميه على هذه السجادة .

فحاول كل واحد من الحاضرين أن يصل الى التفاحة من غير أن يدوس على السجادة ، ولكن أحداً منهم لم يوفق .

وأخيراً نهض ابراهيم ، وكانت ذراعاه قصيرتين،فاستغرب الطوال من الزعماء إقدامه بعد أن رأى عجزهم ، ولكن ابراهيم أخذ بهدوء طرف السجادة وبدأ

يطويها برفق حتى وصل الى قرب التفاحة ، دون أن يطأ على السجادة ، وهكذا استطاع تناول الطبق والتفاحة وقدمها الى والده.. فهنأه أبوه ومنحه قيادة الحملة.

تلك هي القصة المصنوعة .. والحقيقة هي ان محمد علي كان معجباً بابنه ابراهيم ويرى أنه أصلح رجل لإدارة حرب الدرعية ، فاختاره قائداً لجيوشه في الجزيرة العربية !

وأما القصة التي ذكرها بلغرف ، فهي قصة قديمة ، فقد جاء في كتاب (سراج الملوك) للطرطوسي ، ما يأتي :

(يروى انه لما همّ ملك الروم بحصار صقلية ، أمر أن يُبسط بساط في الأرض ، ثم جعل في وسطه ديناراً ، ثم قال لوجوه رجاله : مَن أخذ منكم هذا الدينار ، ولم يطأ البساط ، علمنا أنه يصلح للملك !

فوقفوا حوله ، ولم يصل اليه أحد ، فلما أعياهم ذلك ، طوى — هو — ناحية من البساط من عنده ، وأمر كل واحد أن يطوي مما يليه حتى طوى البساط ، فمدّوا أيديهم فلحقوا الدينار .

فحينئذ قال لهم : إذا أردتم مدينة صقلية ، خذوا ما حولها من الحصون والمدن الصغار والضياع والقرى ، حتى إذا ضعفت أخذتموها ..)

ويقول ابن سند إن السلطان محمود لم يكتفِ بفتح الحجاز (بل أمر محمد علي أن يستأصل ملك الوهابيين .. فحينئذ عرف أن ابنه طوسون لا يسدّ في هذا المهم فأمره بالرجوع الى مصر وأمر أسد الديار المصرية ابنه الآخر ابراهيم باشا، فجاء معه من عسكر الأكراد والارناؤوط وعرب مصر الهوارة ما يدك به الجبال ..) — كذا —

مـــن هو ؟

يقول مؤلف كتاب (آثار الأدهار) في وصف إبراهيم باشا :

(.. هو ابن محمد علي ، خديوي مصر ، وهو كبير ولده .

ولد بمدينة (قواله) من الروملي سنة ١٧٨٩ — أي سنة ١٢٠٤ للهجرة ، بعد تزوج أبيه بعامين .

كان ذا قامة مربعة ، يبلغ ارتفاعها نحو ذراعين وثلث ذراع ، وكان ممتلىء الجسم ، قوي البنية ، مستطيل الوجة والأنف ، أشهل العينين ، سوداوي المزاج أجش الصوت ، أشقر الشعر ، في وجهه أثر الجدري ، وقد جعلته الحروب وأهوالها أشيب وهو شاب .

وكان فيه رئاسة وهيبة ، تفعل بمن يتوسمه ، مع همة عالية وبسالة ، لم ترعه معها الكوارث ، ولم تقوَ عليه المصائب ، وكان محباً لعساكره مع صرامة في إنفاذ القانون ومحافظة على النظام ، فكانوا لذلك يميلون اليه مع رغبة في طاعته ورهبة منه .

وكان عارفاً بالتركية والفارسية والعربية ، حافظاً تاريخ البلاد الشرقية .

ولاّه والده قيادة قسم من الجيش ، وهو ابن ست عشرة سنة ، فتخرج في أمور الجندية ، ثم ولاه عدة مقاطعات ، فتقلب في أمور الأحكام)[1] .

إعداد الحملة وسفر ابراهيم باشا الى الحجاز :

قضى محمد علي ستة أشهر في إعداد الحملة الجديدة التي عقد لواءها لابنه البكر ابراهيم باشا .

ويقول الجبرتي ، في أخبار سنة ١٢٣٢ هـ. ان محمد المحروقي ، رئيس تجار مصر ، الذي تولى من قبل تموين الجيوش المصرية ورافق طوسون الى الحجاز ، كان هو نفسه ، (المتعين لمهمات الأسفار وقوافل العربان ومخاطباتهم وملاقاة الأخبار الواصلة من الديار الحجازية .. وشحن السفن ، ولوازم الصادرين والواردين والمنتجعين والمقيمين والراحلين ، والمتعهد بجميع فرق القبائل والعشير وغوائلهم ومحاكاتهم وإرغابهم وإرهابهم وسياستهم على اختلاف أخلاقهم وطباعهم ..

وكانت متابعة توجيه السرايا والعساكر والذخائر الى النواحي الحجازية

---

(١) أنظر كتاب آثار الأدهار ، الجزء الأول ، تأليف جبرائيل الخوري وسليم ميخائيل شحادة طبع عام ١٨٧٧ م . - ١٢٩٣ هـ . ولم تصدر منه الأجزاء الموعودة .

للإغارة على بلاد الوهابية وأخذ الدرعية مستمرة لا تنقطع ..

والعرضي منصوب خارج باب النصر وباب الفتوح ، وإذا ارتحلت طائفة خرجت اخرى مكانها ..

.. وفي صفر تجردت عدة عساكر أتراك ومغاربة الى الحجاز وصحبتهم أرباب صنائع وحرف ..

وفي جمادى الاولى .. سافر جملة من عساكر الأتراك والمغاربة ، وكبيرهم ابراهيم آغا .. وصحبته خزينة وجبخانة ومطلوبات لمخدومه ..) .

ابراهيم باشا في القصير :

ويقول الرافعي ان ستة آلاف جمل نقلت المهمات والذخائر والمؤن والمدافع الى ميناء القصير ، لتشحن في السفن التي ترافق سفينة ابراهيم باشا ورجاله ، عند سفرهم الى الحجاز .

وقد جمع ابراهيم باشا ألفين من الفلاحين في أسيوط وضمهم الى جنده وسافروا مع العسكر .

ابراهيم يتهدد عبد الله ويرفض هداياه :

وصل ابراهيم باشا الى القصير في شهر أيلول وأقام في هذا الميناء قليلاً ، وجاء في كتاب (آثار الأدهار) ان الامام عبد الله أرسل مندوباً من لدنه الى مصر لمقابلة ابراهيم باشا ، فوصل المندوب الى القصير ، وقدّم الى ابراهيم باشا هدايا كثيرة من الإمام عبد الله بن سعود ، ورسالة يطلب فيها عبد الله الموادعة ، فرفض ابراهيم باشا أخذ الهدايا ، وقرأ الرسالة ، ثم قال للرسول :

– اني سأجيب مرسلك في الدرعية !

ويقول بلغراف ان ابراهيم باشا ، بعد أن فرغ من قراءة رسالة عبد الله ، التفت الى كاتبه وقال له : أحضر الرسالة التي كتبها عبد الله إلى أحد مشايخ عسير ، فقرأها فإذا عبد الله يحضه فيها على مقاومة (حمار) مصر ، الذي يعجز عن إلحاق أي أذى ببلاد نجد وستكون الهزيمة نصيبه ... الخ .

وهنا قال ابراهيم باشا للرسول :

هذا ما يكتبه رئيسكم الينا ، وهذا ما يكتبه الى أنصاره [1] !
لا جواب له عندي ، وسأقابله في الدرعية .
فخذ هداياك وانصرف بسلام !

عدد الحملة ومدافعها :

يقول انكيرى ان عدد حملة إبراهيم باشا سبعة آلاف رجل ، بين مصريين وترك وشركس ومغاربة .

وكان معه خمسة مدافع (عيار ١٢) ومدافع هاون كثيرة .

وكان عدد الجمال التي تحمل مؤنه وذخائره عشرة آلاف جمل .

وكان يستخدم أكثر من عشرين ألف جمّال وبدوي .

الأموال :

ويقول ابن دحلان أن محمد علي أصحب ابنه (من صناديق الأموال ما لا يدخل تحت حصر) .

بعثة صحية ومستشار إفرنسي :

ويقول انكيري ان إبراهيم باشا سأل ، قبل سفره ، عن أسباب فشل أخيه طوسون ، فقيل له إن رأس الأسباب : تفشي المرض بين جنوده .

ولذلك ألف بعثة صحية ، على رأسها طبيب ايطالي ، وسافرت معه .

واصطحب معه كذلك ضابطاً افرنسياً ، اسمه فيسيير ، كان قد اشترك في حروب نابوليون ، واتخذه مستشاراً عسكرياً له .

وداع ابراهيم لأمه وقسمه :

ويقول انكيرى إن إبراهيم باشا لما ودّع أمه طوقت عنقه بقلادة من الأحجار الكريمة واستحلفته ألا ينزعها إلا ليضعها على قبر الرسول ﷺ في المدينة ، فعاهدها على ذلك ..

---

(١) أشار الشيخ عبد الرحمن بن حسن الى هذا الكتاب في مقاماته – انظر رأينا في الصفحات السابقة .

ويضيف مانجان إلى هـذا ان إبراهيم باشا أقسم أنه لن يحلق لحيته حتى يحقق النصر .

ابراهيم باشا في المدينة :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٣١ هـ . (وفي هذه السنة جهز محمد علي العساكر الكثيفة .. إلى نجد مع إبراهيم باشا، فسار إلى المدينة وضبطها ونواحيها) .

والحقيقة هي أن إبراهيم باشا وصل المدينة ، عن طريق ينبع ، في أوائل سنة ١٢٣٢ هـ .

ويقول مانجان إن ابراهيم باشا ، عند وصوله إلى المدينة ، ذهب إلى المسجد النبوي ووقف أمام ضريح النبي ﷺ وخاطبه قائلاً :

(أنا إبراهيم ، ابن محمد علي ، الذي أنقذ المدينتين المقدستين، مكة والمدينة.

جئت إلى ضريحك ، لألتمس منك العون والمدد في الحرب التي أخوضها .

فهبني الذكاء الوقاد الذي يكشف لي عن خطط الأعداء ويحميني من مكرهم وأعطني القوة لأنتصر عليهم .

إن أعدائي هم أعداؤك ، وبفضل معونتك وحمايتك سوف يتمزق شملهم .

إنني أعاهدك أن سيفي لن يعود إلى غمده حتى أقضي عليهم قضاء مطلقاً) .

وما ندري إن كان هـذا الخطاب الذي أورده مانجان – وهو مؤرخ موثوق – صحيحاً أو محرفاً ، ولكن خطاب النبي ﷺ على هذه الصورة نوع من الشرك لا شك فيه ، فالله سبحانه ، وحده ، هو الذي يعطي ويمنع !

ويزعم مانجان ان ابراهيم باشا كسر أوعية الخمر التي جاء بها وأقسم أن يعتق عبيده الذين يشتركون معه في المعارك ، متى تمّ له النصر ، وقد فعل .

رأي سادلر في ابراهيم باشا :

كان رأي مانجان في ابراهيم باشا متأثراً ببعض المظاهر الخادعة ، ولكن المتتبعين لسيرة ابراهيم باشا وتصرفاته يقولون انه كان يبالغ في السكر والفجور ، وقـد كشف سلوكه عن قسوة نادرة وتنكر للعهود وشره الى جمع المال بكل

وسيلة وظلم شديد . وقد بلغه ، بعيد وصوله الى المدينة بقليل خبر و
طوسون في مصر فلم يكترث لذلك .

وقد تحدث (ويندر) ، في كتابه الرائع (العربية السعودية في القرن الـ
عشر) عن حوادث القتل التي تمّت بأمر ابراهيم باشا أو بفعل ضباطه وجنو
مع علمه بها ، فقال إنه لم يكتفِ بالقتل وإنما كان يهدم الدور والأسوار ويقطع
الأشجار ويحرقها ، وكأنه يجد في ذلك لذة !

ونقل ويندر عن (سدلر) – الضابط البريطاني الذي جاء من الخليج الفارسي ومرّ بنجد وكتب عنها ثم جاء الى الحجاز واجتمع بابراهيم باشا وفاوضه باسم الحكومة البريطانية – قوله :

(كان من سوء حظي أن أكشف ،بمشاهدات شخصية ،عن ناحية من أخلاق ابراهيم باشا .. ويجب عليّ الآن أن أزيد على ما قلته إن تاريخ المعارك الماضية قد أضاف الى أعمال ابراهيم باشا سلسلة من الفظائع الهمجية ارتكبها خلافاً للعهود التي قطعها مشدّدة بالأيمان المغلظة .

لقد كان ابراهيم باشا يسلب ، أحياناً ، أموال رجال القبائل الذين اشتركوا معه في الحروب وساعدوه على النصر .. وأما أعداؤه الذين هزمهم ونجوا من الموت فكان يأخذ كل ثرواتهم وإن كان كثير منهم لم ينجوا –مع ذلك –من غدره ، لأنه كان يقتلهم أيضاً لمجرد اللذة الطاغية التي يجدها في سفك الدماء البشرية) .

معارك ابراهيم باشا

في الحناكية والموتان :

خرج ابراهيم باشا من المدينة ، بعد انقضاء رمضان والعيد ، الى (الحناكية) واتخذها معسكراً موقتاً ،وأخذ من هناك يغير على العربان ليرعبهم ويستدرجهم الى الخضوع اليه وموالاته ، وكان يشرك معه في غاراته رجال «حرب» المتحالفين معه وغيرهم ، ولم يكن يسر بشيء كسروره بما يصيب من المغانم وما يقتل من الرجال ، كأنه في رحلة صيد .. ويقول ابن بشر ان ابراهيم باشا نزل الحناكية (وأكثر الغارات على ما حولها من العربان وأخذ أموالاً وقتل رجالا ، فاجتمع

عليه بوادٍ كثيرة من تلك الناحية، من حرب ومطير وغيرهم وعتيبة ومن عنزة الدهامشة) ثم أغار على (الرحلة) من حرب فأخذهم وقتلهم .

ويقول مؤلف آثار الأدهار ان ابراهيم باشا سار في ٢٧ يناير ١٨١٧ م. من الحناكية في ألف وثمانمائة مقاتل (ومعه غانم ، شيخ بني حرب ، في خمسمائة فارس ، فغزا وغنم ، وعـــاد الى الحناكية بسلب كثير ، من جملته ٨٠٠ جمل و ٤٠٠٠ رأس غنم ، فهابته قبائل العرب وأتوه سرباً صاغرين مستأمنين اليه) .

الموتان :

ويقول الجبرتي ، في أخبار سنة ١٢٣٢ هـ.

(في عاشره وصلت هجانة وأخبار عن ابراهيم باشا من الحجاز بأنه وصل الى محل يسمى (الموتان) فوقع بينه وبين الوهابية قتـــال ، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذ منهم أسرى وخياماً ومدفعين .

فضربوا – في القاهرة – لتلك الأخبار مدافع) .

ولم نجد ذكراً للموتان ، التي اعتبرها الجبرتي أول قرية يستولي عليها ابراهيم باشا وراء الحناكية ، في ابن بشر ، ولكنها وردت في (خلاصة الكلام) ولعل المؤلف نقلها عن الجبرتي ..

سنة ١٢٣٢ هـ .

معركة ماوية :

يقول مانجان إن ضابطاً جاء من القاهرة الى ابراهيم باشا في الحناكية وأبلغه أن الباب العــالي منحه رتبة باشا بثلاثة أذيال .. وفي نفس الوقت وصلته ثلاثة مدافع ، من مخلفات الحمـلة الفرنسية التي كانت غزت مصر بقيادة نابوليون .. وكل ذلك قوّى عزمه ، بعد أن كانت الأمراض المتفشية في جنده قد آلمته كثيراً ، وفي أواخر نيسان من عام ١٨١٧م. قرر ابراهيم باشا متابعة التقدم صوب نجد ، وكان هدفه الأول الاستيلاء على بلدة ماوية . وقد استولى عليها بسهولة ويسر .

أول وهن وقع في المسلمين :

ويقول ابن بشر إن الإمام عبدالله خرج من الدرعية يريد الغارة على البوادي

التي ناصرت ابراهيم باشا، فلما عرفت هذه البوادي قصده التجأت الى الحناكية، فرجع عبد الله الى نجخ في عالية نجد (فبلغه ان « علي أزن » ومعه عسكر من الترك وبوادي كثيرة ساروا الى « ماوية » ، الماء المعروف قرب الحناكية ، بينه وبينها يومين فنزلوها ، فتجهز عبد الله من خبرا نجخ يوم ١٣ جمادى الآخر وأحضر ثقيل القش في القصر وقصد ماوية .

فلما كان صبيحة الجمعة منتصف الشهر المذكور فاض عليهم في ماوية بغتة ، وهم على مائهم ، فحمل المسلمون عليهم حتى قربوا من محطة العسكر ، فثوّر الترك مدافعهم ، فخفّ بعض البوادي الذين مع عبد الله وانصرف عبد الله ومن معه ونزلوا قرب جبل ماوية ، قبالة الترك ، فثبت الترك وبواديهم لما رأوه نزل فوجهوا مدافعهم الى المسلمين ورموهم بها فأثرت فيهم ، فأمر عبد الله بعض المسلمين أن يرحلوا وينزلوا الماء ، فلما همّوا بالرحيل خفّت البوادي وتتابعت فيهم الهزيمة ووقع في قلوبهم الرعب، فاتصلت الهزيمة في جموع المسلمين، واختلطت الجموع بعضها في بعض، وتبعهم الترك والبوادي وقتلوا رجالاً وأخذوا كثيراً من السلاح وغيره وسقط في الأرض من أهل الركايب .

وركب عبد الله في كتيبة من الخيل وحمى ساقة المسلمين .

وهلك في تلك الهزيمة بين القتل والأسر والظمأ نحو مائتي رجل .

وهذا أول وهن وقع في المسلمين) .

سبب هزيمة عبد الله :

يقول ابن سند إن سبب خسارة عبد الله في معركة ماوية ، ثم في كل معركة ، ان رجاله كانوا يحاربون بالرماح والسيوف على الطراز القديم ، ومعهم بنادق بالفتيل (فمسافة ما يفك الوهابي بندقيته من جرابها ويولع الفتيلة ، يكون قد أصابه خمس رصاصات على الأقل) من الجندي التركي الذي يملك بندقية حديثة سريعة الطلقات .

وهناك سبب آخر أضعف عبد الله وهو عداوته لقبائل حرب، الذين يقيمون في منطقة الحناكية .

ويزعم ابن سند ان القائد (ازن علي) الأورفلي الكردي ، ومعه أكثر من مائتي فارس ، اقتحم مقـــدمة عسكر الإمام عبد الله ثم تبعه عربان حرب ، وان رجلاً شهد تلك الموقعة أخبره ان الخوف من صوت المدفع ومن اسم الترك (الروم) انتشر في جنود عبـد الله ، ولولا اشتغال الترك بجزّ الرؤوس لكانوا أفنوا نصف جيش عبد الله ، (فمن هـــذه الوقعة استسهل ابراهيم باشا محاربة الوهابيين وعرف انه لا طاقة لهم بمقابلة ... المدافع ..)

بعد المعركة

محاولة لاسترداد ماوية :

يقول انكيرى إن مقـــاتلة عبد الله بن سعود عادوا إلى ماوية يحاولون استردادها ، ولكن حاميتها أطلقت عليهم المدافع واستولت على ما كان معهم من أفراس وأرز وقمح وذخائر .

يقتل الأسرى وينتظر المدد :

وقد أمر إبراهيم باشا بقتل الأسرى من النجديين ..

وأقام في ماوية مدة ، ينتظر المدد من مصر ، فوصله ١٢٠٠ فارس وعدد من المشاة ومدفعان .

فيصل الدويش :

وجاء فيصل الدويش ، رئيس عشائر مطير ، إلى معسكر ابراهيم باشا ، وأعلن خضوعه اليه وإخلاصه للدولة ، وعداءه لعبد الله بن سعود ، الذي قتل أخاً له ، ثم استأذنه في الإنصراف قائلاً : سأنتظركم في الرس [1] .

---

(١) يقول مانجان ان الدويش جاء الى ابراهيم باشا بعد انتصاره، وبدلاً من أن يجعله الباشا أميراً على الدرعية ، كما وعده ، طالبه بالتأخر من الزكاة عن خمس سنوات ، فتظاهر الدويش بالقبول، فأرسل معه إبراهيم باشا ضابطين يرافقانه لاستلام المال منه ..

ولما وصل فيصل الدويش إلى عشيرته ، قال للضابطين :

إذهبا إلى مولا كما وقولا له : إنه لم يف بوعده لي ، فإذا أراد شيئاً مني فليأت إلي ..

– أنظر الصفحة التالية –

مشاهير القتلى في ماوية في رسالة السقاف :

لم يذكر ابن بشر أسماء أحد من القتلى في معركة ماوية ، وقد وجدنا في دار الوثائق في استانبول ، رسالة كتبها الشيخ أحمد السقاف العلوي إلى أمين كيلار طريق الحج، جاء فيها إن عبد الله انهزم في ماوية (وعمره ما حصلت عليه هزيمة مثل هذه) وان المصريين غنموا ذخيرة وخياماً وخيلاً وثلاثة مدافع ، وقتلوا ابن حجيلان ، أمير القصيم ، وعماً لعبد الله بن سعود ، وابن عمه ، وإخواناً لعبد الله .. وفي الرسالة أيضاً ان إبراهيم باشا لم يحضر بنفسه معركة ماوية ، والله أعلم !

وهرب فيصل الدويش بعد ذلك إلى العراق .

ولو أنه صدق في الدفاع عن بلاده إلى جانب عبد الله لكان لمؤازرته بعض الأثر في تخفيف الكارثة ، إن لم نقل في اجتنابها ..

معركة الرس

في رسالة لابراهيم باشا :

كتب ابراهيم باشا ، في أواخر شعبان ١٢٣٢ هـ . رسالة الى والده يقول فيها ان عبد الله ذهب الى بلدة (عنيزة) وشرع في تحصينها ، ولذلك قرر نقـــل معسكره من الحناكية الى مكان أقرب الى عنيزة والدرعية ، حتى لا يترك لخصمه فرصة للاستعداد ، وهكذا غادر الحناكية في ١٥ شعبان وتحرك نحو بلدة (الرس) ، ولما وصل الى قرب قلعـــة الرس طوقها وأخذ يرميها بالمدافع لمدة خمسة أيام ، فهدم ثلاثة من أبراجها وقسماً من جدارها ، ثم أمر جنوده بالهجوم عليها فاستولوا على أحد البروج المتهـدمة ، ولكن النجديين جمعوا أغصاناً من النخيل اليابس وأحرقوها أسفل ذلك البرج فلم يستطع الجنود احتمال النـــار والدخان (فأخرجناهم من البرج ونقلناهم الى الخندق خارج القلعة .. ثم ملأنا الخندق وردمناه ليمر عليه جنودنا حين نأمرهم بالزحف ، وكان كل ذلك يجري أثناء القتال المستمر بيننا وبينهم ، وقد قتلوا منا نحو أربعين وجرحوا ستين .

وفيما نحن نستعد للزحف ودخول القلعة ، بلغنا ان عبد الله خرج من عنيزة وقصد الى القرية التي أرسلنا اليها فريقاً من جنودنا ليتموّنوا منها بالقش والتبن، فأجّلنا مهاجمة الرس وذهبت على رأس عدد من الخيـــالة لملاقاة عبد الله والدفاع

عن تموينا ، وقد وفقنا الله فقتلنا من رجال عبد الله مائة وخمسين وجرحنا كثيراً من فرسانه وفرّ الباقون ، ثم عدنا الى محاصرة الرس .

إن هذه القلعة مبنية بالحصى والطين ، وهي متينة جداً ، وجدرانها تتألف من ثلاث طبقات ، ويجب أن نصب على كل طبقة ستين قذيفة حتى تتهدم ، وأسأل الله أن أوفق الى فتحها قريباً وأبشركم بذلك الخ ..)

مقاومة الرس البطولية :

يقول سدلر إن ابراهيم باشا عند وصوله الى ظاهر بلدة الرس أقسم انه لن يدع فارساً من فرسانه يترجل ولا خيمة من خيامه تنصب قبل أن يدخل البلدة ..

وتقدم رئيس مدفعيته الى بُعد ثمانين خطوة من أسوار قلعة الرس وشرع برميها ، وكان الجنود المصريون يتلقون رصاصاً منهمراً من حماة القلعة فيقتل منهم عشرة أضعاف من يقتلون هم من النجديين .

استطاعت المدفعية المصرية بعد رمي موصول خلال ثلاثة أيام أن تحفر ثغرة في البرج فأحضر الجنود أكياساً من القش وسعف النخل وملأوا بها جانباً من الخندق المحيط بالقلعة ليمروا فوقه الى الثغرة ويزحفوا الى القلعة ..

وقد أمر ابراهيم باشا ستمائة من خير مشاته بالزحف عبر الخندق المردوم الى القلعة ففعلوا ، ولكنهم لم يستطيعوا تسلق الأسوار ، وكان الرصاص ينهمر فوقهم .. بينما لا يستطيعون التراجع لأن ابراهيم باشا أمر رجالاً بقتل كل جندي منهم يتقهقر .. وقد رفض كذلك دفن الذين قُتلوا منهم ..

امتد حصار المصريين للرس ثلاثة أشهر ونصف الشهر ، أظهر خلالها النجديون في الرس أنهم كانوا أكثر علماً بالحرب من القائد التركي ..

استهلك ابراهيم باشا في رمي الرس بالمدافع ثلاثين ألف حلقة من القنابل ، وأطلقوا من الرصاص ببندقياتهم حمولة أربعمائة جمل ..

وقدرت خسائر الجيش في محاولة الزحف التي قام بها بتسعمائة قتيل وألف جريح ..

وصنعوا من أشجار النخيل ما يشبه البرج ونصبوا عليه المدافع ليرموا البلدة من علو ، فلم يجد ذلك .

وأخيراً اقتنعوا بأن أسوار البلدة مصنوعة من مادة لا تنفذ منهـا القنابل ، ولم يبقَ أمام الباشا إلا رفع الحصار ، وترك الرس لأهلها .

رواية انكيري :

ويقول انكيري : ذهب ابراهيم باشا الى الرس في ٨ يوليو ، ولحقه اليهـا فيصل الدويش ..

لم يعاين ابراهيم باشا بلدة الرس ويختبر مواضع الضعف فيها ، وكان ذلك خطأ كبيراً منه ، لأنه كان يطلق المدافع عليها دون هدى ، وربما فعل هذا لاعتلال صحته ورغبته في استعجال الأمور ، ومع العجلة الزلل .

فقد ابراهيم باشا في الرس أكثر من ثمانمائة من رجاله وندم لما كان منه ، وكان يمني الجنود ويعدهم بقرب وصول المدد من مصر وطال الحصار كثيراً ..

ولو أن عبد الله بن سعود جاء الى الرس على تلك الحال لدحر المصريين .. ولكن عبد الله لم يفعل وكأنه هو أيضاً كان ينتظر المدد ..

رواية آثار الأدهار :

وفي آثار الأدهار ان ابراهيم باشا سار من الماوية (في أربعة آلاف رجل وألف ومائتي فارس ما خلا التابعين من الأعراب ، قاصداً مدينة الرس، فنازلها ورماها بالكرات ستة أيام متوالية ، وهاجمهـا ثلاث مرات ولم يتمكن من اقتحامها ، وكانت بينه وبين حاميتها معارك قتل بها من عسكره زهاء ٣٤٠٠ مقاتل ، ولم يهلك من عساكر الوهابية إلا نحو ١٦٠ مقاتلاً وجرح منهم جماعة .

ثم هادن أهل المدينة على أن يرحل عنها ولا يدخلها، فوادعوه على أن يكون له حق بإقامة طائفة من جنده بها إذا استولى على بلدة عنيزة) .

رواية مانجان وفيسيير :

يقول مانجان ان ابراهيم باشا أخفق مراراً في اقتحام الرس ، وانه عمد الى حيلة ظنها ناجحة لحمل أهالي الرس على الاستسلام ، وذلك انه قتل عدداً من

النجديين ووضع جثثهم أمام سوار الرس ليراها السكان ويخافوا ويستسلموا ، ولكنهم استمروا في مقاومتهم الباسلة .

وقد كتب ابراهيم باشا الى فيصل الدويش يستقدمه الى الرس فحضر مع رجال من عشائره وقدم المؤن ووسائل النقل .

وفي النهاية صالحت حامية الرس ابراهيم باشا على عدم محاربته ، وعلى القبول بدخول حامية مصرية الى البلدة ، متى استولى المصريون على عنيزة .

خسر المصريون في حصار الرس ٣٤٠٠ رجل ، ولم يخسر النجديون سوى ١٦٠ رجلاً) .

ويقول قنصل فرنسا في القاهرة ان المستشار الفرنسي الحربي لإبراهيم باشا (فيسيير) أخبره ان خسائر المصريين في الرس بلغت ثلث مجموع قواتهم .

معركة الرس في رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر ان ابراهيم باشا سار الى الرس فوصلها في ٢٥ شعبان سنة ١٢٣٢ هـ . وكان (معه من العدد والعِدد والكيد الهائل ما ليس له نظير ، وكان معه مدافع وقبوس هائلة ، كل واحد يثور مرتين : مرة في بطنه .. ومرة تثور رصاصته وسط الجدار بعد ما تثبت فيه فتهدمه ..)

وقد ثبت له أهل الرس وأمدّهم عبد الله بن سعود برجال من عنده ، مرابطة ، (وحاصرهم الترك أشد الحصار ، وتابعوا عليهم الحرب في الليل والنهار ، كل يوم يسوق الباشا على سورها صناديد الروم ، بعد ما يجعل السور في الأرض « مهدوم » ، فأنزل الله السكينة على أهل البلاد والمرابطة وقاتلوا قتال من حمى الأهل والعيال ، وصبروا صبراً ليس له مثال ، فكلما هدمت القبوس السور بالنهار بنوه في الليل ، وكلما حفر الترك حفراً للبارود حفر أهل الرس تجاهه حتى يبطلوه ، وبعض الأحيان يثور عليهم وهم لا يعلمون .

وطال الحصار الى اثني عشر ذي الحجة .

وذكر ان الترك رموا في ليلة خمسة آلاف رمية بالمدافع والقنابر والقبس ، وأهلكوا ما خلف القلعة من النخيل وغيرها .

هذا وعبدالله بن سعود وجنوده المسلمون في عنيزة .. فأرسل أهل الرس اليه إما أن يرحل الى الترك ويناجزهم ، وإما ان يأذن لهم بالمصالحة .

وأقبل عساكر وقبوس وأمداد من الترك كثيرة ونزلوا على ابراهيم ومن معه في الرس ، واستعظم أمره ، وكثرت دولته ، فوقعت المصالحة بينه وبين أهل الرس على دمائهم وأموالهم وسلاحهم ، وبلادهم وجميع من عندهم ، والمرابطة يخرجون الى مأمنهم بسلاحهم ويجميع ما معهم .

وقد خرج المرابطة من الرس وقصدوا عبد الله في عنيزة .

وقتل من أهل الرس والمرابطة في هذا الحرب نحو سبعين رجلاً ، وقتل من عسكر الترك ما ينيف على ستمائة رجل .) .

خطأ عبد الله في رأي الجنرال فيغان :

أخطأ ابراهيم باشا في حصار الرس لأنه لم يعمل بنصيحة مستشاره فيسيير ، الذي أشار عليه باختيار المواضع المناسبة لمدافعه قبل رمي البلد ، ولكن خطأ عبد الله أفظع ..

ويقول الجنرال فيغان ان عبد الله بن سعود أخطأ خطأ لا يغتفر بعدم اتباع الخطة الحربية البارعة التي قيل ان بعض رجاله نصحوه بها .

كان يجب عليه :

١ – أن يحمل على الترك بعشرة آلاف مقاتل ويستدرجهم الى الصحراء .

٢ – أن يرسل ثلاثين ألف مقاتل للاستيلاء على البلدة ثم يأتي هو بجيش آخر من وراء ابراهيم باشا ..

٣ – أن يرسل فرقــة ثالثة الى الحجاز ، لتسترد بمساعدة اليمانيين ، مكة والمدينة ..

ولو كان عبد الله على حظ من التفكير الحربي السليم لاستفاد من حالة اليأس التي غمرت المصريين لعجزهم عن الإستيلاء على الرس فهجم عليهم وغلبهم .

لكن عبد الله لم يهتم بمساعدة أهل الرس وإنما كان مهتماً بالدفاع عن الدرعية جاهلاً أن الدفاع عن الرس هو دفاع عن الدرعية .

كان يجب على عبد الله أن يتبع الخطة التي اتبعها الأمير عبد القادر الجزائري في حربه ضد الافرنسيين . كانوا يملكون جيشاً مؤلفاً من مائة ألف مقـــاتل ، ولكن عبدالقادر استطاع الصمود أمامهم سبع سنوات، وذلك انه وضع لنفسه سياسة حربية في منتهى الذكاء وتتلخص خطته في قيـــامه بهجمات خاطفة على الافرنسيين وعلى خطوط مواصلاتهم ، ثم الانسحاب فجأة ..

ولو طبق عبد الله هذه الخطة في جزيرة العرب لكان نجاحها مضموناً .

هل جرت مفاوضات للصلح خلال حصار الرس ؟

يقول مانجان إن عبد الله بن سعود بدلاً من الهجوم على ابراهيم باشا أثنـــاء حصاره الفـــاشل للرس ، بعث اليه الشيخين محمد الحنبلي وعبد العزيز بن محمد يعرضان عليه الصلح فرفض ..

ثم كرر عبد الله طلبه بواسطة صالح بن رشيد فطلب ابراهيم باشا أن يدفع اليه عبد الله نفقات الحملة ومتأخر رواتب الجنود وألفي حصان وثلاثة آلاف جمل ومؤن لستة أشهر ، ويقدم اليه اثنين من أولاده رهائن ..

فقال له رسول عبد الله : ما هـــذا ؟ إنك تفاوض سلطان نجد ، ولا تخاطب فلاحاً مصرياً .

ولم ينعقد الصلح ..

ويقول انكيري إن ابراهيم باشا قال لرسول عبد الله : إنه يخدعني بطلبه ، بينما يثير البدو ويجمعهم ضدي .

وكان الرسول يحمل هـــدايا معه فرفضها ابراهيم باشا ، وكأن الرسول خاف من مغبة الرفض وسوء أثره في الدرعية ، فبـــاع الهدايا واشترى ١٢ عبداً ، وأشاع قبل دخوله الدرعية أنه نجح في مهمته وأن ابراهيم باشا أرسل معه هؤلاء العبيد هدية ..

ولما استقبله عبد الله قال له : أبعد النـــاس ، ولما خلا به ، قال له : لم أشأ إضعاف روح رجالنا. لقد نظر ابراهيم باشا إلى هداياك بازدراء ورفضها وأجاب أنه قادم إلى الدرعية، فخُذْ حذرك . إن جيشه رغم ما حلَّ به ما زال قوياً ..

وهذه الروايات أقرب إلى الخيال ولكننا لا نملك نفيها تماماً، ويضعفها عندنا أنها تروى أحياناً عن محمـــد علي أو طوسون أو عن ابراهيم نفسه ، ولكن في مناسبات اخرى !

لولا الدويش لرجع ابراهيم باشا عن القصيم !

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن في « المقـــامات » إن ابراهيم باشا نزل (القصيم وحاربهم قدر شهرين ، وأيّدهم الله بالنصر لما كانوا مستقيمين صابرين ، وعزم على الرجوع عنهم ، لكن فيصل الدويش — قـاتله الله — قوّى عزمه وطمّعه وخوّفه ، وبعد هذا صالح أهل الرس) ..

الخبرا وعنيزة

الخبرا :

سار ابراهيم باشا من «الرس» إلى «الخبرا» فاستولى عليها في سهولة ويسر.. ويكتفي ابن بشر من أخبار استيلاء إبراهيم باشا على بلدة الخبرا بقوله انه نزل الخبرا بعساكره ، (فلما نزلوها وقع الرعب في قلوب المسلمين وتفرقت البوادي) .

عنيزة :

سار ابراهيم باشا بعد استيلائه على الخبرا إلى عنيزة ، وكان عبد الله في عنيزة ، ولكنه لم يبقَ فيها لمواجهة إبراهيم باشا ومقاومته ، واكتفى ، كما يقول ابن بشر، بوضع مرابطة من أهل نجد فيها « في قصر الصفا » وجعل لهم في القصر (شيئاً كثيراً من الطعام والبارود والحطب وجميع ما يحتاجون اليه) ثم رحل إلى بريدة .

(ثم إن الباشا وعساكر الترك رحلوا من الخبرا الى عنيزة ، ونازلوها فسلمت لهم البلد وأطاعوا لهم .

وامتنع أهل القصر، فجرّ عليهم القبوس والقنابر ورماهم بها رمياً هائلاً يوماً وليلة ، وعمل الباشا زحافات دون رصاص أهل القصر وقرب منهم القبوس والقنابر فثلم جدار القصر ، ووقعت رصاصة من القنبر في القصر ، وجعلها الله

سبحانه على جبخانهم،وكان في موضع خاف في بطن الأرض مسقف عليه بخشب كبار وفوقه طين وتراب .. فثار الجبخان وهدم ما حوله ومات بسببه رجل أو رجلان .

فلما رأى أهل القصر أن البلد أطاعت له وأن سور القصر هدم عليهم طلبوا المصالحة من الباشا فصالحهم على دمائهم وأموالهم وسلاحهم ، فخرجوا من القصر ودخله الترك ، ورحل المرابطة إلى أوطانهم .

فلما بلغ ذلك عبد الله ، وهو في بريدة رحل منها وقصد الدرعية ، وأذن لأهل النواحي يرجعون إلى أوطانهم) .

رسالة القنصل الافرنسي :

ويقول القنصل الإفرنسي في القاهرة في رسالتين أرسلها إلى وزير الخارجية بباريس إن عنيزة استسلمت ليلة ١٧ نوفمبر سنة ١٨١٨ م.، بعد انفجار مستودع للبارود ، ووجد المصريون فيها أربعة مدافع .

ويبلغ عدد سكان عنيزة ثمانية آلاف نفس .

وقد بني حصنها خلال سبعين سنة .. وهو ثخين جداً ، وكان الناس يظنون أن عنيزة مدينه منيعة لا يرام قهرها بسبب مناعة حصنها العظيم ، ولذلك قال صاحب الرس لإبراهيم باشا : سنسمح لحامية مصرية بالإقامة في بلدتنا متى تم لكم الاستيلاء على عنيزة ..

وكان هذا القول ينطوي على شيء من السخر والمكر .

ولكن عنيزة سقطت.. و «فسيير» — الضابط الإفرنسي — هو الذي نظّم الحصار وأدار المعركة ، فلم يقاوم المقاتلون في عنيزة ، من وراء حصنهم ، أكثر من ستة أيام ثم استسلموا .

وتعاظمت ثقة إبراهيم باشا بمستشاره الإفرنسي بعد هذا النصر ، فكان رأيه هو المتبع عنده .

ويقول انكيري ان ابراهيم باشا لم يستعمل الشدة مع النجديين الذين قاوموه وإنما طلب منهم أن يلقوا سلاحهم ويخرجوا من عنيزة ، ففعلوا .

بريدة والمذنب وأشيقر :

ويقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٣٣ هـ . ، ان الباشا ارتحل من عنيزة ، وقصد (بريدة) ونازل أهلها فأطاعوا له ، ثم رحل منها وأخذ معه أميرها وعدداً من أعيانها ، كعادته في كل بلد يستولي عليها ثم يرحل منها ، ثم سار الى (المذنب) ثم الى بلد (أشيقر والفرعة فاستأمنوه ودخلوا في طاعته) .

شقراء

في رسالة ابراهيم باشا :

يقول ابراهيم باشا في رسالة الى والده محمد علي انه وصل (شقراء) ، وبدأ حصارها في ١١ ربيع الأول ١٢٣٣ هـ. — ٢٥ يناير ١٨١٨ م. وانه بدأ برمي السور والأبراج المبنية في البساتين وكان عدد تلك الأبراج نحو عشرين، وقد تهدم شطر كبير من السور بعد رميه بالقنابل مدة أربع وعشرين ساعة، فهجم العساكر على الأبراج وقتلوا عدداً من حماتها واستولوا عليها .

ثم أدنيت المدافع من سور القلعة واستمر الرمي ثلاثة أيام حتى تهدم جزء من جدار القلعة ،فتعالت صيحات الأهالي وقد رأوا تقوض البروج والأسوار والقلعة وكثرة القتلى والجرحى طالبين الأمان قائلين: (إرحم عيالنا واعفُ عن تقصيرنا يا ابراهيم) ..

ثم جاء عدد من وجهاء البلد الى ابراهيم باشا يعرضون الولاء ويطلبون المصالحة ، فأمنهم واشترط عليهم تسليم المدافع الخمسة الموجودة في القلعة وجميع الأسلحة التي يملكها المقاتلون النجديون الأربعمائة الذين وضعهم عبد الله في القلعة مدداً ، وأن يتعهد الأهالي ببيع العساكر كل ما يطلبونه من الميرة ..

رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر إن أهل شقرا كانوا يتوقعون غزو بلدتهم ولذلك قاموا بتعميق وتوسيع الخندق الذي كانوا بدأوا في حفره وقت طوسون فلما وقع الصلح أهملوه،

وقد أمرهم باتخاذ الاستعدادات للغزو أمير شقرا والوشم حمد بن يحيى ، فقاموا في حفر الخندق (أشد القيام ، واستعانوا بالنساء والولدان لحمل الماء والطعام ، حتى جعلوه خندقاً عميقاً واسعاً ، وبنوا على شفيره جداراً من جهة السور .

ثم ألزمهم – أميرهم – كل رجل غني يشتري من الحنطة بعدد معلوم من الريالات ، خوفاً أن يطول عليهم الحصار ، فاشتروا من الطعام شيئاً كثيراً .

ثم أمر على النخيل التي تلي الخندق والقلعة أن تشذب عسبانها ولا يبقى إلا خوافيها ، ففعلوا ذلك وهم كارهون، لأن أهل هذه البلدة هم المشار اليهم في نجد، والمشهورون بالمساعدة للشيخ وعبد العزيز ومن بعدهم) .

حصار شقرا والصلح :

بدأ ابراهيم باشا حصار شقرا ، كما يقول ابن بشر، يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول سنة ١٢٣٣ هـ . وكان قد جاء مع طليعة ومدفع يوم الخميس فدار حولها (وقاسها وعرفها وعرف موضع منزله ومنزل عسكره وقبوسه ..

فلما كان صبيحة الجمعة رحل من اشيقر بخيمه وعساكره وقبوسه ومدافعه وقنابره – وكان قد أتى اليه امداد من العساكر والقبوس وصار في قوة عظيمة – فسار الى شقرا فنزل أسفل البلد وشمالها ، فخرج اليه أهلها ، فساق عليهم الباشا الترك ، فوقع بينهم قتال شديد في وسط النخيل وخارجها ، فقتل من الترك قتلى كثيرة وجرح عليهم جرحى عديدة ، فتكاثر عليهم افزاع الترك ، وجرح الأمير حمد بن يحيى ببندق جرحاً شديداً فدخلوا البلد واحتصروا فيها .

ثم ان الباشا جرّ القبوس والقنابر والمدافع وجعلها فوق المرقب ، الجبل الشمالي ، فرمى البلد منه رمياً هائلاً أرهب ما حوله من القرى والبلدان من أهل سدير ومنيخ وأهل المحمل وغيرهم ، حتى سمعه من كان بالحرمة ومجزل وما حولها .

فلما احتصر أهل البلد فيها أنزل قبوسه ومدافعه وقنابره من رأس الجبل وقرّبها من السور وحقق عليهم الحرب والرمي المتتابع ، حتى قيل انه رماها في ليلة بثلاثمائة حمل من الرصاص والبارود .

وذكر لي رجل كان في وسطها ، قال: (إن رصاص القبوس والمدافع والقنابر يتضارب بعضها ببعض في الهواء فوق البلد وفي وسطها) .

ثم إنه هدم ما يليه من سورها ، وقطع نخيلها إلا القليل، وأهل البلد ثابتون وفي أكنافها يقاتلون .

فقرّب الباشا القبوس من السور ، وهدم ما يليه من الدور والقصور، فحماهم الله سبحانه ، وكفّ أيدي الترك عنهم ... فكلما همّ الترك بالحملة عليهم انثنى عزمهم لأجل الخندق ولأجل ما أذاقوهم من شدة القتال أول نزولهم ، فصار الخندق من الأسباب لثبات أهلها لأنه لا يرام ..

وفي كل يوم وليلة والباشا يناديهم ويدعوهم الى المصالحة ويأبون عليه .

فلما كان يوم الخميس وقعت المصالحة بين الباشا وبينهم ، خرج اليه رجلان من رؤساء أهلها فصالحوه على دمائهم وأموالهم وما احتوت عليه بلدهم .)

رواية مانجان :

في ١٣ ينـــاير سنة ١٨١٨ م. خرج ابراهيم باشا على رأس ثمانمائة فارس يستكشف أطراف شقراء ، ويختار مكاناً يقيم فيه معسكره ، فجرت بينه وبين النجديين مناوشة يسيرة قتل فيها اثنان من رجاله وجرح نفر منهم ، وفي المساء عاد ابراهيم باشا الى مخيمه وأمر الرؤساء بالاستعداد للرحيل صباح الغد ..

كانت المسيرة بطيئة ، لأن المدفعية كانت مضطرة الى شق طريقها خـــلال رمال متحركة .

كان عدد العساكر أربعـة آلاف وخمسمائة مقاتل ، يتبعهم ستة آلاف بعير محملة بالمؤن والذخائر .

وقد وصلوا الى شقرا عند الظهر، وأنزلهم ابراهيم باشا الى الشرق من البلدة، وأمر المشاة بأن يطلقوا رصاصهم ، بينما اتخذت المدفعية أمكنة لها في مرتفعات مناسبة وأخذت ترمي البلد بقنابلها رمياً شديداً ، وفي اليوم الثـــالث للهجوم أمكن إحداث ثغرات في أسوار البساتين ، فانطلق الجنود يهجمون على الدور المتناثرة في بساتين البـلدة الخارجية ، فقاومهم النجديون بشدة وأجبروهم على

الانسحاب، ولكن النجديين لم يستطيعوا الصبر على القنابل والقذائف فانسحبوا وتحصنوا داخل أسوار المدينة .

استولى المصريون على ما في البساتين من دور وتحصينات ، وبعد أن تمّ لهم ذلك شرعوا في بناء تحصينات خاصة للمدفعية واتبعوا في محاصرة البلدة وترتيب الهجوم عليها الخطط التي وضعها المستشار الافرنسي فيسيير ، حتى لا يتكرر الخطأ الذي ارتكبوه في حصار الرس .

كان المصريون يظنون أن الحصار قد يطول، فحملوا الى مخيماتهم أعداداً هائلة من الأغنام والجمال وأصناف الطعام ، وكثير من ذلك كانوا غنموه في غاراتهم على العشائر المعادية .

وبعد الانتهاء من ذلك كله أخذت المدفعية ترمي البلد بقذائفها ، واستمر هذا القذف ستة أيام ، وفي اليوم السادس أرسل أهالي شقرا ورجال حاميتها رسولاً الى ابراهيم باشا يعرض عليه المصالحة ، فتوقف القتال ساعتين لإجراء المفاوضات ، ولكنها لم تسفر عن اتفاق ، فاستؤنف القتال .

ثم عادت الحامية فأرسلت مندوباً آخر يحمل شروطاً جديدة للصلح ، فوافق عليها الباشا ، وأعطى أمير شقرا حمد بن يحيى – وهو قريب لعبد الله بن سعود لأنه زوج أخته – منديلاً أبيض ، رمز الأمان ، ففتحت المدينة أبوابها لإبراهيم باشا وعسكره وقت الظهر .

كان في شروط الصلح : أن مقاتلة شقرا ، وعددهم ١٤٠٠ مقاتل ، يلقون أسلحتهم ويعودون الى بلدانهم بعد تعهدهم بأنهم لن يشتركوا في أي قتال .

وكان عند حامية شقرا خمسة مدافع، يدير رمايتها ضابط تركي فار من جيش طوسون ، فطلب الباشا تسليمها فسلمت اليه ، واستولى الباشا كذلك على كل ما كان في شقرا من سهام وسيوف وبنادق وذخائر ، ولكنه وزعها على حلفائه من العشائر وأهل نجد .

ووجد ابراهيم باشا في شقرا من القمح والأرز والشعير ما يكفي عسكره شهراً كاملاً .

سقط من أهالي شقرا وحاميتها مئة وسبعون قتيلاً وجرح مائتان ، بينهم خمس وثلاثون امرأة وعـــدد من الاطفال . ولم يعرف عدد الأسرى الذين أمر ابراهيم باشا بقتلهم .

أما خسارة الترك فكانت مائة وثلاثين قتيلاً وعدداً كبيراً من الجرحى .

الآذان المقطوعة :

كتب ابراهيم باشا ، بعد استيلائه على شقرا ، الى والده يبشره بهذا النصر السريـع على أعظم بلدة محصنة في نجد .. وأرسل مع الهجانة عدداً كبيراً من آذان الشهداء النجديين الذين قتلهم لتكون « دليلاً » على فعاله وفتكه ، وقـد تكرر من ابراهيم باشا هذا النوع من التمثيل الذي تنكره الديانة والأخلاق ، ويستوجب لفاعله الخزي والعار ، لا الفخر والزهو ..

الاستعداد للهجوم على الدرعية :

كان انتصار الباشا في شقرا مغرياً له بالإسراع في الهجوم على الدرعية ، فطلب من والده امدادات قوية ، ويقول القنصل الإفرنسي روسل ان محمـد علي لبّى طلب ابراهيم فأرسل اليه ٩٠٠٠ جندي .

وقدّر روسل عدد أزواج الآذان المقطوعة التي أرسلها ابراهيم الى أبيـه ليتنعم هو ورجاله برؤيتها بألف ومائتي زوج .. لعل بعضها أُخذ من الجرحى فزادهم تشويهاً وهم أحياء ..

الباشا يرحل من شقرا ثم يعود للانتقام :

يقول ابن بشر ان الباشا رحل من شقرا بعد أيام من المصالحة ، فوشى بأهل شقرا رجل وزعم له ان بعض الأهالي رحلوا الى الدرعية وأنهم سينقضون العهد ويحاربونه الخ .. فدخل البـاشا البلد مغضباً بعـــدد كبير من عسكره ، واستدعى اليه أمير البـلدة الجريح وخاطبه بشدة ، واستدعى كذلك الشيخ العالم عبد العزيز الحصين وحدثه بمـا جرى من أهل البلد ، ولكن الحاضرين في مجلسه أقنعوه بالأدلة القاطعة على كذب الواشين (فكفى الله شره .. وأمرهم

أن يخلوا بيوتاً للجرحى الذين جرحوا في الحرب ففعلوا..وهدم سور البلد ودفن خندقها وأقام عليها نحواً من شهر ثم ارتحل منها ومعه عشرة من رؤسائهم) ..

ذلك ما يقوله ابن بشر ولكن مانجان يقول ان سبب عودة الباشا الى شقرا البرد وهطول الأمطار بغزارة مما جعل مسير العساكر متعذراً. وأما هدم السور فقد وقع بعد الإستيلاء على الدرعية .

بطولة ضرمى

حاصر ابراهيم باشا بلدة ضرمى[١] أربعة أيام، رماها خلالها رمياً هائلاً بالمدافع حتى تهدم سورها ثم قاتل أهلها في الأسواق والبيوت ، ثم اقتحم البـلدة عنوة فوجدها خالية من أهلها باستثناء النساء والأطفال والعجزة.. فجمعهم وقال لهم أن يذهبوا الى الدرعية ، يريد من وراء ذلك أن يلقي الرعب في نفوس أهـل الدرعية فيسهل عليه الاستيلاء عليها ..

لم يكن حصار ضرمى وحربها طويلين، لأن سور البلدة لم يكن متيناً كسور شقرا ، وأما القلعة فلم يكن لها سور ولا حولها خندق، وكل هذا مكّن المدفعية المصرية من الفتك بالأهالي فتكاً ذريعاً ، ولكن الأهـالي قاوموا الغزو ببسالة اسطورية ورفضوا عرض الصلح ، ويقدّر ابن بشر عـدد سكان ضرمى بألف ومائتي رجل، استشهد منهم ثمانمائة ، ولكنهم قتلوا من جنود ابراهيم باشا خلال الهجوم الكبير ما يقرب من هذا العدد ..

بدأ الغزو المصري صباح ١٤ ربيـع الثاني ١٢٣٣ هـ . فقد وصل الباشا يومئذ الى شرقي البلد ونزل بعساكره وثقله وخيامه قرب قصور المزاحميات ، قال ابن بشر : (ثم سارت العساكر بالقبوس والمدافع والقنابر ونزلوا بها شمال البلد قرب

---

(١) « ضرمى » ، كما أثبتها ابن غنام ، وجاءت في ابن بشر هكذا : « ضرماء » !

السور ، فثار الحرب بين الترك وبين أهلها ، وحقق الباشا عليهم الرمي المتتابع وحربهم حرباً لم يروا مثله وثبت الله أهـــل البلد فلم يعبأوا به ، وطلب منهم المصالحة فأبوا عليه ولم يعطوه الدنية .

ــ وكانت هذه البلد ليس في تلك النواحي أقوى منها ، بعد الدرعية، رجالاً وأموالاً وعدداً وعدة .. ــ

.. ثم حشدت عليهم عساكر الترك ، وثلموا السور بالقبوس والمدافع فلم يحصلوا على طائل .

ثم حشد الترك عليهم أيضاً وقربوا القبوس من السور وحاربوها حرباً عظيمة هائلة ، فهدموا مـــا والاهم من السور . (ذكر لي انهم عدّوا فيما بين المغرب والعشاء الآخرة خمسة آلاف وسبعمائة رمية ما بين قبس ومدفع وقنبر) .

ثم ان الباشا ساق الترك عليهم ، وأهل البلد ثابتون فيه ، فحمل الترك عليهم حملة واحدة، فثبتوا لهم وجالدوهم جدال صدق، وقتلوا منهم نحو ستمائة رجل، وردّوهم الى باشتهم .

.. وبنوا بعض ما انهدم من السور .

فلما رأى الباشا صبرهم وصدق جلادهم، أمر على بعض القبوس وصرفها الى جنوب البلد ، وفيه متعب بن عفيصان ومن معه من أهل الخرج ، فرماهم بتلك القبوس .

وكان الحرب والضرب والرمي متتابعاً على أهل البـلد من الترك في الموضع الأول ، وجميع أهل النجدة من أهل البلد والمرابطة قبالتهم ، عنـــد السور المهدوم ، في وجه القبوس والقنابر ، فلم يفجأهم إلا الصارخ من خلفهم ان الترك قـــد خلفوكم في أهليكم وأولادكم وأموالكم ، فكرّوا لبلدهم راجعين ، وكرّت عساكر الترك في أثرهم ، وذلك بعد صلاة الصبح ١٧ ربيع الثاني .

وكانت تلك الليلة التي حصلت فيها شدة هذا الحرب من إرادة الله سبحانه وقدره ، لما أراد الله أن يمضي أمره ، صبّ السماء عليهم تلك الليلة بالمطر ومعه برد شديد يجمـــد منه في الجو القطر ، وكانت البلد ليس على قلعتها سور ، بل

أسواقها عابرة من كل جهة الى نخيلها ، والسور المذكور خـــارج النخيل .. ودخلت الترك البلد من كل جهــة وأخذوها عنوة ، وقتلوا أهلها في الأسواق والسكك والبيوت، وكان أهل البلد قد جالدوهم في وسطها الى ارتفاع الشمس، وقتلوا من الترك قتلى كثيرة ، ولكن الترك خدعوهم بالأمان ، ذكر لي انهم يأتون الى أهل البيت والعصابة مجتمعة فيقولون لهم : أمان.. أمان.. ويأخذون سلاحهم ويقتلونهم ، وقد نهبوا جميـع ما احتوت عليه البلد من الأموال والأمتاع والسلاح واللباس والمواشي والخيل وغير ذلك) .

ويقول ابن بشر ان الامام عبد الله بن سعود كان أمـد ضرمى قبل وصول ابراهيم باشا اليها بالمرابطة من الدرعية وغيرها ، فأرسل اليها سعود بن عبد الله ابن محمـد بن سعود في عدد من رجال الدرعية وغيرهم ، ومتعب بن ابراهيم بن عفيصان بعدد من أهل الخرج وغيرهم ومحمد العميري بعـــدد من أهل ثادق والمحمل ، فلما استولى العساكر على البلد (خرج العميري المذكور في شرذمة رجال من أهل ثادق والمحمل ، بعدما قتل بعضهم ، فجال عليهم الترك فضربوهم بالرماح والسيوف حتى خلصوا من بين أيديهم ونجاهم الله . واحتصر سعود المذكور في قصر من قصور البلد ومعـه أكثر من مائة رجل من أهل الدرعية وغيرهم فأرسل اليهم الباشا وأعطاهم الأمان على دمائهم فخرجوا وساروا الى الدرعية ولم ينلهم مكروه .

وهرب رجال من أهل البلد وغيرهم في البرية على وجوههم فبين ناج ومقتول.

وبقيت البلد خالية من أهلها ، وجمع الباشا جميـع ما فيها من النساء والذرية وأرسلهم الى الدرعية، وهم نحو ثلاثة آلاف نفس ، فلما قدموها قام لهم عبد الله وأهل الدرعية فأنزلوهم وأعطوهم وأكرموهم .

والذي قتل في هذه الوقعة من أهل ضرمى نحو ثمانمائة رجل ، وأهل البلد قيمة اثنتي عشرة مائة رجل ، وقتل من المرابطة نحو من خمسين رجلاً) .

العبيد حاولوا قتل ابراهيم باشا :

يقول غوان ومانجان ان المماليك الذين كانوا يتولون حراسة ابراهيم باشا في

خيمته ليلاً ، وهم من عبيده الذين كان وعدهم بالعتق ولكنه لم يفعل - تآمروا فيما بينهم على قتله وأخذ مـا يستطيعون أخذه من أمواله والهرب الى العراق ، وكان رأس المؤامرة المملوك يوسف ، ويقال ان سبب غضبه ان ابراهيم باشا كان يجلده هو وسائر المماليك .

لم تنجح المؤامرة لأن أحد المتآمرين أبلغ خبرهـا سراً الى الباشا ، فأحضر يوسف الى خيمته وجرى بينهما حديث ومشادة عنيفة ، فأخرج يوسف مسدسه وأطلق النار على ابراهيم باشا فأصابه بين عنقه وكتفه اصابة غير قاتلة ، وهرب يوسف فلحق به العسكر وأمسكوه وقتلوه .

وقد أوكل ابراهيم باشا بعد ذلك حراسة خيمته الى الجنود .

ويقال ان محمد علي قرر ، بعد هذا الحادث ، استدعاء ابراهيم الى مصر ، أو نقله من نجد الى الحجاز ، ولكنه أمهله حتى يتم له الإستيلاء على الدرعية ..